كتاب « الله »

(تأليف الأستاذ عباس محمود العقاد)

بقلم الأستاذ محمود عماد

حاولت أكثر من مرة أن أكتب كلمة عن كتاب (الله) ولكني ما كنت أهم حتى أحجم . لأن غرض الكتابة لا يعدو تقديم المؤلف ، أو تقديم الكتاب . أما المؤلف فهو غنى عن التقديم لأنه (العقاد) ، وأما الكتاب فأنى أرى كل تقديم له تأخيراً . اذ هو ليس من الكتب التى تلم بها الكلمة العابرة ، وتضع منها أمام القارىء صورة مصغرة .

وإذا كانت كل أوراق مغلفة تسمى كتاباً ، فأن هذه الأوراق شيء أجل من كتاب . إنها حادثة من حوادث القلم التى لا تقع فى عالم التأليف إلا فى آماد متباعدة .

ولو أن هذا الكتاب ظهر فى بلاد غير مصر لكان له فيها دوى يزلزل آلاف الكتب عن رفوفها . ولكنه ظهر فى مصر فكان حسبه أن يجد له بين كل ألف رف مكاناً واحداً ، وأن يكون هذا المكان هو أهدأ أمكنة المكتبة حركة ، حتى يأذن الله فيقيض له مترجماً يترجمه إلى لغة أجنبية . عند ذلك يحدث الدوى ، وتكون الزلزلة . اذ يرى فيه العالم أول كتاب تقصى تاريخ العقيدة البشرية ، من عهد الطوطمية إلى عهد التوحيد ، مستهدياً بالعلم والفلسفة والألهام ، مذ طور الخلية حتى طور العقل

وهى رحلة طويلة شاقة إلا على قلم رحال متقص كقلم العقاد الذى حقد فى فناء كتابه مؤتمراً من فلاسفة الأمم ، شرقيها وغربيها ، قديمها وحديثها ، تبوأ فيهم العقاد مكان الصدارة ، وأخذ يناقش كل فيلسوف رأيه ، نقاش الخبير بكل رأى ، فيخذل هذا حتى لا يجد له من ناصر ، وينصر ذاك حتى لا يتصدى له خاذل . ثم يخلص إلى رأيه الخاص ، يطالبك به واضحاً مشرقاً كالشمس تخلصت من السحب ، فى عبارة غنية ، وحجة حاسمة ، ومنطق مستقيم . وهى صفات التفوق .

قلت إن كتاب (الله) لا يلخص ، ولكنه يقرأ . فليقرأه من يريد أن يعتز بالعبقرية الشرقية ، والبيان العربى.

وما كتبت هذه الكلمة تقديماً للكتاب ، ولكن لأجد بها فرجة فى جو (الرسالة) الفسيح من شعور مكبوت ينالبنى منذ قرأته . بل هو ينالبنى كلما قرأت محضر ساعة من ساعات العقاد التى يجلسها بين كتبه . تلك الساعات الحافلة التى أقول فيها بحق :

عباس طرت إلى السماء ولمست ذرات الضياء
ونفذت قبل إلى طبا قى الأرض من يبس وماء
لم تحتجب عنك الكثا فة ، لا ولا دق الصفاء
أفأنت روح خالص أم أنت سر الكهرباء ؟
كلا ، فأنك مثل هذ ا الناس محدود البناء
يعروك ما يعروهم من راحة أو من عناء
فيم اهتديت إلى الذى ضلوا واحصيت الخفاء ؟
هذا بأنك شاعر والشعر يعرف ما يشاء
والشعر يبدو فى النظا م أو النثير على السواء
ساعاتك الغر السوا طع من نقاذ وامتلاء
جثم الزمان بها كما جلس الوليد القرفصاء
وتحدثت فيها الحيا ة بغير لبس والتواء
أكبر بساعتك التى وسعت نواميس البقاء
فى أى حجم صيغ (عقر بها) وفى أى استواء ؟
أتراه فوق الأرض ركب أم على وجه السماء ؟
يا ليته قيست به أعمارنا قبل الفناء
فأذا بها تضفو كأعما ر النجوم على الفضاء

محمود عماد

ظهر حديثا كتاب

أحمد عرابى